

الحلقة الحادية والثلاثون: كيف يعالج الإسلام مشاكل الإنسان علما لا يتغير عبر الزمان والمكان - ج2

للرجوع لصفحة الفهرس اضغط هنا

أما الواقع الفاسد، فقد جاءت الشريعة لتغيره تغييرا جذريا انقلابيا، فتعاملت مع الواقع لا على أساس جعله مصدر التفكير ولكن على أساس جعله محل التفكير، فالجتماع الغارق في الفساد، لم تأت الشريعة لتلتقي معه في منطقة الوسط، بل فاصلت الجاهلية مفاصلة تامة، منطقتها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون]، ومنطقتها: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون]، ومنطقتها: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]، ومنطقتها: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88].

وهنا نجد أن الإسلام ليس بمسؤول عن كل المشاكل التي نتجت عن تطبيق غيره سواء الاشتراكية أو الرأسمالية، فالإسلام ليس بمسؤول عن إيجاد حل مرحلي لمشكلة فرض التأمين على المسلمين إجباريا مع أنه يتناقض مع شريعتهم، وليس بمسؤول عن إيجاد حل مرحلي لمشكلة الفقر التي ألجأت بعض المسلمين إلى الربا، فلو كان الإسلام مطبقا لمنع التأمين ولمنع الربا ولحا الفقر، فهو لا يتخذ الواقع مصدرا للتفكير بل يُعَيِّرُ الواقع بمفاهيمه الجذرية الانقلابية فيمحو الكفر ويضع الإسلام موضع التطبيق فورا.

كذلك فإن الإسلام راعى في تشريعه تحقيق العبودية لله وحده، فالإنسان الذي يقنن لغيره إنما ينصب نفسه إلهًا من دون الله، وبالتالي فالإسلام هو إخراج للعباد من عبادة الرب العالمين، وهنا تجد بعض التشريعات إنما جاءت لتختبر طاعة العباد لربهم بغض النظر أصطدمت مع مصالحهم الآنية ونظرتهم الضيقة للأمر أم توافقت معها، فالغربي يبحث عن علة لتحريم الخنزير، فلا يجد، ومقياسه النفعية وبالتالي لا يقف على حقيقة تحقيق العبودية لرب العالمين، وهي من أهم مطالب الشرع، فالتزام ما أمر الله ورسوله فيه تحقيق العبودية لله وحده وفيه تسليم له تعالى بأنه أحق بالحاكمية، وأنه وحده العليم بما يصلح للبشر وما يصلحهم.

وأخيرا فقد منح الشريعة ما لا يوجد في غيرها من التشريعات، فقد جعلها مقاييس مبنية على الاعتقاد، فكانت وازعا عقديا يزع الانسان للالتزام بها مخافة الله، ومحبة في الله، ورجاء في جنب الله، مما يجعل الإنسان ليس بحاجة إلى قوة مصلته عليه لتردعه ليلتزم القانون، بل تجعله يخضع لسلطان الله في السر والعلن، فلا يرى الإفلات من عقوبة الحاكم في الدنيا غنيمة ولا مكسبا، فهو يعلم أن الله يراقبه، ولكنها أيضا وضعت العقوبة الحكيمة المناسبة للمخالفة لهذه الأوامر، فكانت العقوبات زواجر جوابر، تردع من تسول له نفسه التهاون في تنفيذ أوامر الله تعالى.

فهذه أمثلة ستة تضع خطوطا عريضة لطريقة الإسلام في علاج المشاكل، وهي: أن الإسلام عالج المشاكل علاجا جذريا متعلقا بجنس الإنسان، وثانيها أنه راعى الظروف غير الاعتيادية والتي يظهر فيها اضطراب المسلم لما حرم عليه من مأكّل ومشرب، وثالثها: تعلق نظام الإسلام بأمور معينة هي ما نبع من وجهة النظر في الحياة، وما يدخل في مفهوم الحضارة، وأما الجانب المتعلق بالمدينة فقد تركه للإنسان يبدع فيه كيف شاء، ورابعها أنه لم يجعل الواقع مصدر تفكيره ولكن محل تفكير من أجل تغييره بالمفاهيم الصحيحة لا الالتقاء معه في منتصف الطريق، وخامسها تحقيق العبودية لله وحده سبحانه لأنه الحاكم وحده، وسادسها أنه وضع آلية لتطبيقها وتنفيذها تضمن التنفيذ الذاتي لها في غياب السلطان، ولكنها أيضا وضعت العقوبات الزواجر الجوابر للخارجين عليها لتضمن حسن تطبيقها.

لقد اختلف الإسلام في طريقته في حل المشاكل كليا عن القوانين الوضعية، فقد كان حلا مخالفا للتشريع الذي يحل مشاكل الناس باعتبارهم فلانا أو علانا، يريد هذا تقنيننا يبيح له الزنا وذاك يبيح له الخمر، فيفصل التشريع على كيف المتشريعين أو المحسوبين عليهم من أرباب الصناعات ورأس المال، أو على أساس المحسوبيات والنفيعات والأهواء مما يجعل التشريع قاصرا عن الصمود أيما علاوة على أن يصلح للبشرية في رحلة الحياة الدنيا.

ولقد تناولت الشريعة الإسلامية مشاكل الإنسان لتنظم سلوكه، فراعته التحقق من أن يكون الحل هو الحسن وما سواه هو القبيح على الحقيقة، ولقد راعت إحقاق الحق والعدل، وضمنت أن يؤدي السلوك إلى إعمار الأرض بالعمل الصالح لا العيث في الأرض فسادا، فكان الشرع متجنباً الأهواء والمصالح الآنية الضيقة، راقيا بالإنسان عن درجة البهيمية في إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، مراعيًا إنسانيته وعقله، محققا مصلحته على الحقيقة لا على التخريص، رحمةً لسائر الناس، مبنيًا على نظرة صحيحة للكون والإنسان والحياة قائمة على حلٍ صحيحٍ للعقدة الكبرى مبنية على العقل متوافقة مع الفطرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وعلى سعيد آخر في البحث، فإن الشريعة الإسلامية جاءت باللغة العربية، فوسعت علاج المشاكل التي كانت في زمن المصطفى ﷺ، والتي ستطراً إلى يوم الدين، فقد أكمل الله الدين، وهذا محور له بحثه الطويل، وقد تناولنا بالبحث والتأصيل لهذه الموضوعات في كتابنا: لا يصلح الإنسان في أي زمان أو مكان إلا بالإسلام، فراجعه ففيه تكملة واستقصاء للأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع. والحمد لله رب العالمين.